محمد عوذة

الحملة الفرنسية على مصر

نحتفــل أو لا نحتفــل



الحملة الفرنسية على مصر
نحتفل أو لا نحتفل

/١/

محمد عودة

(الحملة الفرنسية على مصر نحتفل أو لا نحتفل)

الطبعة الأولى ١٩٩٩

دار الثقافة الجديدة

٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق

باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس : ٣٩٢٢٨٨٠

المحتويات

	ص
ــ نحتفل أو لا نحتفل	٥
ــ فشلت مغامرة الشرق	
"قضيت في مصر أجمل أيام حياتي"	٢١
ــ اللحن الأخير	٣٣
ــ بعد الجلاء	
"الصراع والأطماع"	٥٢
ــ الحصاد	
"ثورة ديمقراطية شعبية"	٦٨

***

الحملة الفرنسية

" نحتفل أو لا نحتفل "

(نحتفل بانتصار الشعب الصغير الأعزل على أقوى جيش في العالم وقائده الاسطوري وبكسب أول حرب تحرير شعبية في التاريخ الحديث، والتي شقت الطريق للشعوب المقهورة لنيل حريتها، وبتقويض "أخطر" مشروع (استعماري) للسيطرة على الشرق والعالم ثم .. باستيعاب كل دروس الحملة لإقامة أول وأقوى دولة شرقية "عربية" عصرية لتحل محل الإمبراطورية العثمانية المريضة، ولتواجه أطماع الغرب.

وقد اتحدت أوروبا لأول مرة وآخر مرة في تاريخها بزعامة بريطانيا للقضاء عليها لأنها أكبر خطر يهدد المصالح الأوربية في الشرق).

***

لم يزعم أي معلق أو مؤرخ فرنسي أو مصري، شرقي أو غربي أن نابليون بونابرت جاء إلى مصر في مهمة حضارية تنويرية، ليحمل إليها علوم وفنون

الغرب، وليبشر بمبادئ الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والأخاء.

وكان نابليون صريحا واضحا، لم يخفي أو يجهل مهمته وأعلن أنه ذاهب ليبني مجده في الشرق والذي لا يبني إلا هناك كما فعل الاسكندر وليحقق الحلم الفرنسي الكبير، ويقيم إمبراطورية شرقية عربية آسيوية، ترث الإمبراطورية العثمانية "المريضة" وتحسم المسألة الشرقية المزمنة، ثم تزحف إلى الهند لتستردها من بريطانيا، وتنتزع السيطرة على تجارة الشرق ثم العالم بالتبعية.

وقدر نابليون للمهمة التاريخية مدة تتراوح بين خمسة عشرة أو ستة عشر عاما يعود بعدها " إمبراطور" ليسود فرنسا ثم أوروبا.

وهكذا كان المشروع.

خطتان

في أول بيان أذاعه على الجنود قبل النزل إلى البر في الإسكندرية أكد الهدف قائلا:

" أيها الجنود، سوف توجهون إلى إنجلترا الضربة القاضية التي لم تكن تتوقعها أو تخطر لها على بال،

سوف نقضي على المماليك عملاء إنجلترا والذين يعملون لحسابها ويحاربون تجارتنا وتجارنا، وينزلون بهم كل ضروب الإهانة. سوف نسحقهم، ولن تقوم لهم قائمة بعد بضعة أيام من هبوطنا. إن المدينة الأولى التي ننزل إليها تستمد اسمها من الإسكندر الأكبر، وهو الذي أقامها وفي كل شبر وخطوة سوف نجد أثر أو ذكرى نستلهمها في معاركنا وإنجازنا ".

وكانت هناك خطتان إستراتيجيتان لحسم الصراع بين الدولتين الأعظم في ذلك العصر، وكانت الأولى تقضي بالهجوم المباشر على إنجلترا والاستيلاء على لندن، ولكن بعد الدراسة المفصلة للشاطئ الأوروبي والشاطئ الإنجليزي شارك فيها أهم جنرالات "الثورة" تبين استحالة التنفيذ، وكانت الخطة الأخرى محفوظة في الأرشيف الفرنسي وتقضي بالاستيلاء أولا على مصر "مفتاح الشرق" وأن تكون قاعدة الزحف والالتفاف .. وآمن نابليون بهذه الخطة على مصر وسارت الحملة وانهمك بونابرت في الإعداد للمهمة التي سوف تخلد اسمه في التاريخ، ويحقق ما لم يستطيع الاسكندر تحقيقه.

جمع في ميناء طولون أكبر حشد عسكري ومدني عرفته فرنسا حتى ذلك الحين من العسكريين والعلماء

والأدباء والفنانين كل المواهب والكفاءات، وجمع أحدث الأسلحة والآلات والنماذج والمعدات الصناعية، " وكان يعمل ليل نهار كما لو كان كولومبوس جديد. ينوي اكتشاف عالم جديد، أو يعيد صياغة العالم القائم .. وبدا أن فرنسا كلها راحلة إلى كوكب آخر تحمل إليه قوتها وحضارتها ".

" وحينما أعلن عن بدء الرحيل ساد الجميع فرح وطرب كما لو كانوا في طريقهم إلى نزهة أو مهرجان أو مغامرة بحرية، ولم يكن الحماس حماس مقاتلين يستعدون لمعارك فاصلة، بل مغامرون يتوقعون غرائب ومفاجآت ساحرة، وكان الفنان ديفون يتحدث في نشوة عن الراقصات الشرقيات اللاتي ينتظرنه، وعن أنواع البخور والعطور والسماء والنجوم الصافية التي سوف يستغرق فيها ".

" وتصدر بنود الاستعداد اهتمام نابليون بدراسة الإسلام وقراءة ما استطاع من القرآن وطريقة حياة وحكم الخلفاء والسلاطين المسلمين، وذلك لكي يجيد تقمص الشخصية وأن يبهر بها الشرقيين الذين سوف يرون لأول مرة السلطان العصري العادل الذي لم يعرفوه طول تاريخهم (سوف نثبت لهم اننا أرقى من الأمم الأخرى، بل سوف نضرب لهم مثلا ونموذجا هو الأول من نوعه بين الفاتحين المنتصرين، اننا جئنا

بحضارتنا وثقافتنا مثل قوتنا، وان السلطان بونابرت ليس هو جنكيز حان ".

وتأكدت أهداف الحملة مرة أخرى لدى وقوع أول كارثة كبرى، وتحطيم الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير على يد الأسطول البريطاني بقيادة نلسون.

وأرسلت حكومة الإدارة في باريس إلى قائد جيش الشرق رسالة تقول:

تقدر الحكومة الموقف العصيب الذي أصبتم به وان جيش الشرق أصبح معزولا تماما عن الوطن الأم، ولهذا فأن الحكومة تترك لك حرية اتخاذ القرار فيما يجب القيام به، سواء بالصمود في مصر أو مواصلة الزحف إلى الهند وإثارة الانتفاضة الهندية الكبرى بالتحالف مع الأمراء ضد إنجلترا أو الزحف شمالا إلى القسطنطبنية واقتطاع القدر الأكبر من الإمبراطورية العثمانية.

وأيا كانت الوجهة التي سوف تتجه إليها فأنه لا يخالج الحكومة أي شك في عبقرية قائدها العظيم، وفي حسن الحظ الذي يلازمه، وتحية لك والرجال البواسل المتميزين الذين يحيطون بك).

وأذاع بونابرت خطابا يخفف به وقع الكارثة على جنوده وضباطه، وكانت شديد الوطاة قال فيه:

(إذا كان الطريق بيننا وبين الوطن قد انقطع لم يعد البحر الأبيض بحيرة فرنسية إلا أن كل الطرق مفتوحة أمامنا برا وبحرا لتنفيذ حلمنا العظيم سواء شمالا نحو القسطنطينية أو شرقا نحو الهند).

وبهذا يصبح الجدل حول أهداف الغزو (غير ذي موضوع) .. وتبقى الأحداث.

وقبيل الهبوط أرتدى نابليون قلنسوة وعباءة شرقية وأعد منشورا يذاع على المصريين، ليطمئنهم ويقنعهم بتأييد الحملة قال فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه. من طرف الجمهورية الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير بونابرت أمير الجيوش الفرنسية.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك انهم نزلوا في رومية الكبرى، وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها (الكواليرية) الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

والفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه أما المماليك فانهم غير متمثلين لأمره وما أطاعوا أصلا إلا لطمع في أنفسهم وسوف لا تقوم لهم قائمة.

وأن المصريين بأجمعهم يجب أن يشكروا الله سبحانه وتعالى بعد القضاء على دولة المماليك، ويدعون بصوت عالي أدام الله أجلال السلطان العثماني .. أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك وأصلح الله حال الأمة المصرية.

ثم بدأت المقاومة

ودهش نابليون وبهت وصدم لدى نزوله إلى البر.

شاهد من على بعد أهل المدينة محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا، رجالا ونساء، كبارا وصغارا ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح، ولم يجد توزيع المنشور، ولم يملك سوى إصدار أمره بالهجوم العام، وفوجئ بسيل من الرصاص وأخذ الأهالي يطلقون النار من الأبراج والأسوار إطلاقا من غير إحكام وقابل الاهلون الجنود في الشوارع بإطلاق النار إطلاقا شديدا

من المدافع والبنادق وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين، وكان نابليون نفسه أن يصاب برصاصة في إحدى الحارات أطلقتها أمرأة .. ووصف بوريين سكرتيره الخاص الحادث قائلا: دخل نابليون المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع أثنين يمران جنبا لجنب، وكنت أرافقه في سيره وأوقفنا فجأة طلقات رصاص كان يصوبها رجل وامرأة من أحد المنازل وأستمرا يطلقان النيران، وكادت إحداها تصيبه، حين أمر الحرس بالهجوم وهدم المنزل والقضاء على الرجل والمرأة.

وكان زعيم المقاومة هو السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية، وقد رفض منشور نابليون وأعلن المقاومة "نادى على الأهالي بحمل السلاح ولبوا النداء، وبعث الرسل إلى مراد بك في القاهرة يطلب المدد والنجدة ولما لم يكن هناك أي سبيل للانتظار طلب إلى الأهالي أن يعتمدوا على أنفسهم ومعونة الله.

وبذل الأهالي كل ما في مقدورهم حصنوا الأسوار وشحنوا القلاع بالميرة والذخيرة جهد ما وصلوا إليه وفزعوا إلى السلاح فحمله القادرون منهم وركبوا المدافع القديمة وعهدوا إلى جماعة من الفرسان مناوشة

القوات الفرنسية قبل اقترابهم من المدينة، ولكن أرغم الفرسان على الارتداد، وتابع الفرنسيون الزحف.

وبلغت المقاومة أشدها من حي إلى حي وانتهت إلى الاعتصام مع قائدها محمد كريم في قلعة قايتباي حتى نفذت الذخيرة وتم أسرهم.

وحينما ذهب لكي يستسلم رد إليه نابليون سيفه وعينه حاكما على المدينة وقال له:

لقد أسرتك والسلاح في يدك، وكان يمكن أن أعاملك معاملة الأسير، ولكنك استبسلت في الدفاع والشجاعة هي الوجه الآخر للشرف ولذلك أعيد لك سلاحك وآمل أن تبدي من الإخلاص للجمهورية الفرنسية ما قدمته لحكومة ظالمة عثمانية.

ولم يخلص محمد كريم للغزاة وواصل المقاومة "السرية" وانتهى مصيره إلى الإعدام وأعتبره الأهالي (شهيد الإسلام) وقد تردد نابليون طويلا في إصدار الحكم وندم ندما شديدا بعده.

وبلغت خسائر الفرنسين في معركة الإسكندرية ثلاثمائة قتيل وسبعمائة جريح وهو ما لم يتصوره أمير الجيوش الفرنسية، وكان فاتحة سوء للحملة لم يتوقعه.

وكانت المعركة الفاصلة في القاهرة، وكانت أشد ضراوة وبسالة.

وصلت رسالة طلب النجدة التي بعث بها محمد كريم متأخرة وقالت (حضرت العمارة هذا اليوم في مواكب عديدة مالها أول يعرف ولا آخر يوصف) ثم لم تلبث أن وصلت أخبار استسلام الإسكندرية وأجتمع مراد بك وإبراهيم بك وعقدا جمعية عامة من كبار العلماء والتجار والمماليك وانتهوا إلى وجوب الاستعداد العام للقتال ونودي بالنفير العام.

وهرع أهل القاهرة الذين طالما عانوا من ظلم المماليك للدفاع عن العاصمة في وجه الجيش الزاحف وظهر الشعب في ساحة الخطر أرقى نفسا وأنبل قصدا من حكامه الطغاه.

وأغلقت الدكاكين والأسواق وهرع الجميع للدفاع عن القاهرة وكانت كل طائفة من أهل الصناعات تجمع المال من أفرادها اكتتابا ويجتمعون ليراقبوا ما يصرف عليهم وما يحتاجون إليه مما جمعوا وتبرع بعض الناس بالإنفاق على البعض الآخر ومنم من جهز بالسلاح والزاد بعض القادرين على القتال ولم يبخل أحد بشيء يملكه.

ودارت المعركة في إمبابة وكان خطأ استراتيجيا إلا تدور على الشاطئ الآخر وخلال عبور القوات وقال نابليون وكلمته المشهورة (أربعون قرنا تطل عليكم من فوق الأهرام).

وأعلن أن دخول القاهرة هو بداية التاريخ (والنظام العالمي) الجديد وحرص نابليون والمؤرخون الفرنسيون أن يصفوا المعركة بانها كانت نابليون ضد المماليك، ونهاية تاريخهم وانها انتصار الحرب (الوطنية) الحديثة ضد فروسية القرون الوسطى (المفلسة) وأخفوا أهم الحقائق وان المصريين لم يخدعوا وان الحرب النفسية من طرف الفرنساوية أهل التسوية لم تنفذ إليهم وانهم تحالفوا مع المماليك وحاربوا معهم ضد الغزاة الأجانب.

وكان عدد المصريين الذين استشهدوا في المعركة خمسة آلاف بينما كانت خسائر المماليك ألفي مقاتل.

وفوجئ المصريون بعد سقوط القاهرة بان (سارع زعما المماليك ورؤساؤهم بالهرب حاملين كل ما يستطيعون من مال ومتاع إلى سوريا وتركوا أهل البلاد وجها لوجه أمام القوات الفرنسية). وأصبح على الشعب المصري الأعزل أن يواجه وحده جيش الشرق أقوى جيش في العالم يومئذ وقائده العبقري.

وذكر نابليون الجيش بعد استيلائه على أهم عاصمة في الشرق.

(نحن ملزمون بإنجاز أشياء عظيمة وسوف نحققها.. نحن ملزمون بتأسيس إمبراطورية عظمى وسوف نؤسسها وربما تفصلنا مياه لا تهيمن عليها عن

الوطن، ولكن أي مياه تفصلنا عن آسـبا وأفريقيا أن عددنا كبير ولا تعوزنا خبرة حربية، ولدينا منها كل ما نحتاجه ولن نقف أمامنا أي عقبات أو عراقيل). وعكف نابليون منذ استقر في القاهرة وانـهمك فـي محاولـة استرضاء المصريين وإقناعهم بالمشـاركة فـي إقامـة نظامه الجديد وبناء قاعدة الإمبراطورية وعاصمتها.

وكان أول الإجراءات إشراكهم في السلطة بتكوين الديوان العام.

أن تحكم القاهرة من جانب ديوان عام مؤلف مـن تسعة أشخاص.

يجتمع الشيوخ السادات والشـرقاوي والعريشـي وموسى السوسي وعمر مكرم ومحمد الأمير كل يوم من الساعة السادسة ويشكلون الديوان ويتولون تعين واحـد منهم رئيسا واتخاذ أمين من خارج صفوفـهم وأثنين مترجمين. ويجتمع الديوان كل يوم ظهرا ويوجـد فيـه بشكل دائم ثلاثة أعضاء بلا انقطاع.

وقد دارت منافسات حامية فـي داخـل صفـوف الجيش حول من يشارك في السلطة ومن الذين يعتمـد عليهم. وطالب الضباط "اليعاقبة" باسـترضاء الأغلبيـة الساحقة المقهورة والتي تتطلع إلى الخـلاص. ولكـن نابليون كان مؤمنا بالعلمـاء الذيـن يصوغـون عقـل ووجدان الجماهير وبالتجار الذين سوف يكونون أدواتـه

وسماسرته في الاستيلاء على تجارة الشرق وأن يخلق "بورجوازية" جديدة مواليه .. من الطرفين.

وكان الإجراء الثاني هو إنشاء المجمع العلمي المصري .. وكان يهدف إلى ؟ :

١- ترقية ونشر التنوير في مصر.

٢- بحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر.

ويتكون المجمع من أربع شعب: الرياضيات والفيزياء والاقتصاد السياسي والأدب والفنون، وفتح المجمع أبوابه لكل المصريين ودارت فيه الحوارات بين علماء الحملة وعلماء الأزهر، وكان نابليون يقول (الأزهر هو السوربون في مصر) ولابد أن تعامله على هذا الأساس).

وتولى شعبة الأدب والفنون مستشرق فرنسي (مارسيل) أندمج بين العلماء وبهرهم بالمطبعة العربية التي سوف تحافظ على كل تراث العرب وتنشره لاوسع مدى ورصد المعهد جائزتين كل عام لمن يقدم موضوعا يتصل بالحضارة المصرية أو يتقدمْ الصناعة وأنتخب العالم الرياضي مونج رئيسا وبونابرت نائبا للرئيس.

نابليون يحتفل بمولد النبي

وحرص نابليون على أن يشارك بنفسه وعلى أوسع نطاق بأعياد المصريين واحتفالاتهم.

وحينما قارب موعد مولد النبي عرف نابليون أن المشايخ لا يريدون الاحتفال ومن المرجح أن ذلك كان شكلا من أشكال الاحتجاج وعند سؤالهم برروا ذلك بأنهم لا يملكون الأموال للاحتفال، وعلى الفور قرر منح الشيخ البكري كل المبالغ الضرورية للمصابيح والمشاعل والفوانيس. وأستمر الاحتفال بالمولد النبوي عدة أيام باستعراضات عسكرية وحفلات موسيقى وألعاب نارية وخلع نابليون على الشيخ البكري منصب نقيب الأشراف وأقيمت مأدبة كبرى في داره تناول فيها نابليون الطعام بيديه على الطريقة الشرقية.

وحل اليوم المشهود للاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية يوم ٢١ سبتمبر ١٧٩٨م.

وحرص نابليون على أن يكون الاحتفال مهيبا رائعا للتأثير على أهل القاهرة وأقيم استعراض كبير لقوات المشاه والمدفعية وأقيمت المهرجانات والسباقات في العدو لأول مرة في كل الميادين والأحياء. ودعى المشايخ والتجار والأعيان إلى مأدبة كبرى عظيمة

أزدانت بالإعلام الفرنسية والتركيـــة وخطـــب نـــابليون قائلا:

"نحن نحمل إليكم حضارتنا ولا نرهبكـــــم بقوتنـــا وانتصار العقل يفوق أي انتصار للسلاح".

وفقدت كل الاحتفالات الحماس الشعبي الذي كـانت تتميز به (رغم ان فيضان النيل كان أفضل فيضان منــذ زمن طويل ورغم ان كل شيء كـــان بـــالغ الفخامــة والعظمة) وخلال الاحتفال بعيد الجمهورية أضيء ميدان الأزبكية طوال الليل وأقيم وسط الميدان نصب مرتفــــع باسم شجرة الحرية وظلت الموسيقى تعزف طوال الليـل ولكن بالرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلـــوا الاحتفـــالات مبهرة إلا ان المصريين قاطعوا الاحتفـــال واعرضـــوا عنه.. وكانت نفوسهم منقبضة عن تلك المظاهر وكـــانوا يقولون عن شجرة الحرية (إنها الخازوق).

وفي أول سبتمبر ١٧٩٨ عقد نابليون اجتماعا مـع أعضاء الديوان ولما أستقر بهم المقام أراد أن يلبســــهم رداء الجمهورية ذا الثلاثة ألوان ووضع بيده الرداء على كتف الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان تكريما لـــه وتعظيما، فرمى به على الأرض محنقا غاضبا وأستعفى من الديوان. وعبثا حاول الترجمان أن يقنع الأعضاء ان إلباسهم هذا الرداء تكريما لهم فلم يلـــق منـــهم قبـــولا

وغضب نابليون على الشيخ الشـرقاوي وقـال أنـه لا يصلح للرئاسة.

وذهبت كل الجهود سدى ولم تغن شيئا وقبـل أن ينتهي العام الأول وبعد أربعة شهور من وصول الحملـة إلى الإسكندرية وثلاثة شهور من احتلال العاصمة وقـع الزلزال الذي قوض كل المشاريع وبدد كـل الأحـلام والأوهام.وفي يوم الأحد الموافـق ١١ أكتوبـر ١٧٩٨ ١١جمادي الأول ١٢٣٣هـ انفجـرت ثـورة القـاهرة (الأولى) في الموعد الذي حددته لها قيادة الثورة وكانت لجنة من ثمانين شخصا تكونت فـي أروقـة الأزهـر برئاسة الشيخ محمد السادات تولـت الإعـداد الدقيـق للانقضاض على الغزاة.

ولم تكن انفجارا عفويا أو (هوجة) ولكـن ثـورة منظمة هي الأولى من نوعـها ويـؤرخ بـها معظـم المؤرخين العسكريين بداية حرب التحرير الشعبية التـي أصبحـت سـلاح الشـعوب ضـد المسـتعمرين (والإمبرياليين).

***

الحملة الفرنسية

" فشلت مغامرة الشرق "
قضيت في مصر أجمل أيام حياتي

فوجئ الفرنسيون وعلى رأسهم نابليون بثورة القاهرة (الأولى) أخذتهم جميعا على حين غرة .. كانت أقصى صدمة بعد تدمير الأسطول.

كان نابليون قد اطمأن إلى أنه استولى على خيال المصريين بشخصية السلطان الذي جاء من بلاد (الحرية والتسوية) ليقيم العدل وينصر الحق بمواكب الاحتفالات والاستعراضات والمهرجانات الباذخة خلال الأعياد والمناسبات الوطنية والروحية. واقتنع نابليون أيضا، ولم يخالجه شك انه أفلح ان يطوي تحت جناحه العلماء والمشايخ المسيطرين على عقل الأمة ووجدانها، وذلك بحواراته ومناقشاته الطويلة معهم في المجتمع المصري أو الديوان العام. لقد كان في رأيه (أعظم الإنجازات في تاريخ مصر الحديث).

وفي المجمع المصري انصب جهد صفوة العلمـــاء والمفكرين والمستشرقين ليعيدوا للمصرييـــن اكتشـــاف تاريخهم وتراثهم وواقعـــــهم ومكانـــهم فـــي العـــالم .. وليصلوهم بحضارة العصر وليبحثوا عن حلول صحيحة لمشاكلهم المزمنة.

وقد عرفوا المطبعة لأول مرة ونفذ إليهم الاختراع الذي انتقل بأوروبا من العصور الوسطى إلى الإصـــلاح والتنوير .. وقد بهر العلماء والمشايخ وكانوا يقضـــــون معظم الوقت مع (مارسيل) ليشرح لهم مزاياها.

وفي الديوان العام كانوا يشاركون لأول مرة فـــــي السلطة ويتأهلون لحكم أنفسهم بأنفسهم ويتذوقون طعـــــم الحرية ومعنى الديمقراطية في ظل الجمهورية الفرنسية، بل يستردون الثقة بمكانهم ودورهم في التاريخ.

وكان نابليون قد نقض الولاء لجلالة السلطان (أدام الله ملكه) بعدما تحالف جلالته ضده مع الإنجليز وتحول نابليون مبشرا بالعروبة والقوميـــة العربيـــة والخلافـــة العربية أصبحت تلك أهم قضايا الحوار. (وكان يـــــردد دائما):

لقد قضيت على المماليك ودمرت قوتـــــهم لأنـــهم أخطر أعدائكم، وكل ما أريد هو أن أعيد مجد العــــرب

وأن يسود التفاهم بيننا وأن يدرك أهل مصر جميعا مدى الخير الذي أريد تحقيقه لهم.

وأنفعل ونحمس ذات يوم وناشدهم:

(لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك وكيف تهيمن على مصر العريقة وعلى شبه الجزيرة العربية، حيث الأراضي المقدسة شعوب جاءت من القوقاز وتصوروا إذا ما بعث النبي محمد اليوم فهل يختار إسطنبول مدينة الفسق والفجور .. لا .. انه سوف يختار مصر المباركة وسوف يكون الأزهر معقله الأول).

وتطرق الحوار ذات يوم إلى دعوته لاعتناق الإسلام، وأعلن استعداده بل والجيش أيضا ولكن تعوقه مشكلتان فقط (الختان والخمر) ولعلهم يجدون لهما حلا أو يصدرون له فتوى.

ورغم ذلك لم يكن نابليون يستطيع أن يكون إلا مستعمرا مستغلا أعلن بمجرد دخوله القاهرة عن نظام مالي جديد هو (السلفة) وحدد قائمة طويلة من السلف كانت مائة ألف فرنك على تجار القاهرة وثلاثمائة ألف على تجار الإسكندرية ومائة ألف على تجار رشيد وخمسين ألف على تجار الأقمشة في القاهرة لملابس الجنود ومائتي ألف على تجار الصابون، ثم مائتي ألف على الأقباط الذين يعملون في تحصيل الضرائب

والمكوس وأمتد إلى أصحاب الحرف والصنائع بل وفرض خمس عشر ألف على السقايين وستة آلاف على الباعة المتجولين .. الخ.

ولما كان عدد كبير من نساء المماليك ظللن في القاهرة بعد هرب أزواجهن فرضت عليهن (سلف) لتأمين حياتهم. وتدخل أعضاء الديوان وألحوا في ضرورة التخفيض حتى لا يثور السخط بين الناس، ورفض نابليون رفضا قاطعا وتفاقم الحال بعد تدمير الأسطول .. أصبحت الحملة معزولة عاجزة عن تلقي الإمداد، وتفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال وعدلوا وضاعفوا وأضافوا حتى ضج الناس كبيرهم وصغيرهم.

ولم يشأ نابليون أو يعرف أنه قبل الحملة بقليل أنتقض المصريون في مظاهرة كبرى لم تسبق، تقدمها العلماء وانتزعوا من المماليك (حجة ووثيقة التزموا فيها إلا يفرضوا ضريبة إلا بعد تصديق ممثلي الأمة وسميت السنة عام الحجة).

وبعد إغراق الأسطول شدد الفرنسيون من إجراءات الأمن خوفا من غزو بريطاني ونظموا شبكة واسعة من الجواسيس و(البصاصين) من نقاية الأجانب والأقليات العثمانية والمصريين رأسها مغامر يوناني (برطلمي) عاشت في البلاد فسادا وأرتكبت كل الآثام

في الوشاية والجباية، وأتهم محمد كريم بالتآمر وخيانة الأمانة والاتصال بالعثمانيين والإنجليز وحوكم وصدر الحكم بإعدامه وطلب إليه أن يفتدي نفسه بمبلغ كبير من المال، ولما لم يدفع نفذ الحكم وهال نابليون أن يكون لاعدائه ذلك الأثر بين الناس .. وحينما أشتد الغبن والعسف اجتمع أهل الحل والعقد وأنتهوا إلى أنه لا خلاص إلا بالجهاد.

وتكونت لجنة من ثلاثين عضوا وانتخبت الشيخ محمد السادات رئيسا واتخذت الأزهر مقرا لها، وأخذت على عاتقها الإعداد ليوم الفصل.

كان عليها أن تنشر الدعوة وتنظم الصفوف وتهيئ المتطوعين للقتال وتجمع المال والسلاح، وبدأت الدعوة من على المآذن (ودعا المؤذن إلى الله وإلى الثورة صباح مساء، ولم يتطرق الشك لأي أحد من الفرنسيين أو عملائهم).

وبعد تمام الاستعداد تحددت ساعة الصفر يوم الأحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨.

وفي ذلك اليوم بدت المدينة في حال لم يألفها الناس من قبل، أغلقت الدكاكين وانتشرت في الشوارع جماعات تهتف وتدعو وتصب اللعنات وتدعو الناس للخروج.

وتدفقت الجموع وتوافدت مواكب من القرى والضواحي القريبة، ثم ظهرت فصائل مسلحة دعت إلى الاتجاه نحو تكنات الفرنسيين وأحيائهم، وأندفع الناس إلى هناك حيث نشب الصدام وتساقطت الضحايا، ووصلت (أنباء غامضة "إلى الجنرال ديبوا") حاكم القاهرة وأسرع مع عدد من الفرسان ليستطلع الحال وذهل الجنرال حينما وجد ان الثورة قد عمت كأنما في لمح البصر وان الثوار استولوا على المدينة على باب النصر وباب الفتوح وباب زويله وأحياء الغورية والصناديقية والأزهر أن جموعا من حاملي الأسلحة يتجهون إلى القيادة الفرنسبة وتصاعد الحماس وأشتدت حمية القتال لرؤية الجنرال والجنود، وحينما أطلق النار ردوا عليه بالمثل وسقط الجنرال ديبوا وعدد من الجنود قتلى وتعاظم الحماس .. أصبحت القاهرة شعلة تضطرم نارا.

وحينما وصل النبأ إلى نابليون فقد صوابه كان (ديبوا) أحد أبرز قواده وأشجعهم وأنتفض على الفور قاصدا الأزهر بحثا عن أعضاء الديوان.

حينما وصل (وجد يوم الحشر) وكان هناك خمسة عشر ألفا على الأقل في المسجد والميدان يهللون ويكبرون ويلعنون نابليون والفرنسيين، ولم يستطع أن

يتقدم وأعلن على الفور حالة الحرب. أطلق النفير العلم وأمر أن تنصب المدافع على مرتفعات المقطم شرقي القلعة لتعاون مدافعها في إطلاق النار على المسجد وعلى الجموع.

وانهالت القنابل على الجامع الأزهر وكانت تنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل، وأوشك الجامع أن يتداعى من شدة الضرب وأصبح الحي صورة من الخراب والدمار لم يعد فيه سوى بيوت محترقة ودور مدمرة وآلاف من الجثث تحت الأنقاض لسكان آمنين وكانت الأحياء المجاورة للأزهر خاصة الغورية والصناديقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة واستمر الضرب على أشده حتى الساعة الثامنة مساء ووقع الاضطراب في صفوف الثوار وطلبوا الهدنة والتسليم ولاذوا بالمشايخ والعلماء، وقبل نابليون بعد توبيخ عنيف شفاعتهم وتوقف الضرب، ولم يتوقف الانتقام.

وفي فجر يوم ٢٢ أكتوبر اقتحمت القوات الفرنسية الأزهر.

" دخلوا الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه مقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين وبعثروا

ونهبوا كل ما وجدوا من متاع والأدوات والقصاع والودائع المخبأة في الدواليب" وأعلن الإرهاب العام على الطريقة الفرنسية.

واعتقل ثمانون من المشايخ والعلماء والتجار بتهمة تدبير الثورة وحكم عليهم بالإعدام ونفذ الحكم في الجميع، واعتقل حشد من الرجال والنساء على السواء وكان البعض يعدم فورا والبعض بمحاكمة صورية تنتهي بالإعدام.

واعتقل الشيخ محمد السادات وتولى نابليون استجوابه بحضور الجنرال كليبر وقال له ساخرا (هل تتصور أن هذا العجوز المتهالك الذي لا يستطيع أن يحمل سيفا أو يمتطي جوادا هو زعيم كل هذا التمرد). وقال كليبر:

(ولماذا لا تأمر بإعدامه رميا بالرصاص على الفور). ورد نابليون:

(إن هذا سوف يترتب عليه من العواقب ما هو أسوء بكثير مما لو بقى حيا..)

تذكر نابليون ما أثاره إعدام محمد كريم وأطلق سراحه وكان أول قرار اتخذه إلغاء الديوان العام، وألا يتجول الجنود في الأحياء.

حفرت ثورة القاهرة الأولى هوة عميقة وأبدية بين نابليون والأمة المصرية، وتحول جيش تحرير الشرق إلى جيش احتلال وسط شعب معاد، وأيقن نابليون ان الخيار الأول الذي حددته له الحكومة وهو الصمود في مصر أصبح (مستحيلا) وان عليه أن يلجأ إلى الخيار الثاني ويعوض (النكسة) وقرر أن يزحف شمالا إلى القسطنطينية وبرث أثمن ما في تركة الإمبراطورية ويملي شروطه ويعود ظافرا ليمحو آثار ما حدث ويعاود مع العلماء والمشايخ بناء مجد العرب .. ويعد للهدف الثالث والكبير بالزحف إلى الهند.

وخرجت الحملة إلى الشام في استعراض حافل مهيب رافعا ألوية النصر.

وتنكر له (القدر) منذ اللحظة الأولى، ولم يكد يجتاز الحدود حتى تفشى وباء الطاعون في صفوف الجيش، وبدأ يحصد الجنود والضباط بل والقادة .. كان أولهم (كفاريللي) قائد سلاح المهندسين وأحد أعمدة وأقطاب الحملة.

ثم استبسل المدافعون منذ أولى المعارك واستماتوا في يافا، وكانت أحداث مصر قد وصلت إليهم بل وتسلل عدد غير قليل من المصريين ومن المشايخ إلى الشام ليقاتلوا مع أهلها على رأسهم السيد عمر مكرم ..

وخاض نابليون أقسى معاركه قبل أن تسقط يافا .. وكانت حاميتها تتكون من خمسة آلاف وأستشهد ألفان وأستسلم ثلاثة كان من بينهم خمسمائة مصري.

وقرر نابليون عقابا على ضراوة المقاومة إعدام الأسرى ضد كل قوانين الحرب والشرف العسكري الذي كان يزهو به دائما، ثم عدل القرار وأستثنى منه الأسرى المصريين وأعادهم إلى مصر.

وبعد يومين صدرت الأوامر باستمرار الزحف إلى عكا.

. وتحطمت الأحلام على أسوار عكا، وارتد إلى صدره ما حدث في يافا، وكانت المقاومة شرسة وشدد من بسالتها أن دخلت بريطانيا الحرب.

ووقف الأسطول البريطاني على ساحل المدينة يساند المقاتلين بعد أن أستنفد نابليون كل قواه ولم يجد في النهاية مناصا من الاعتراف بالهزيمة والانسحاب بما بقى من القوات وان يعود بجيش فتك به الطاعون وتداعت معنوياته ربما إلى الحضيض وتبددت أحلامه وأوهامه وحرص نابليون أن يدخل القاهرة في موكب المنتصر المهيب وقد استرضى السيد عمر مكرم وصحبه معه في العودة. ولكنه لم يخدع أحد فقد سبقته

الأنباء وعرف المصريون مقدما كل ما حدث وشفى بعض غليلهم..

وفي باريس فزعت حكومة الإدارة وقررت ان ما حدث في سوريا كارثة ولابد أن تنتهي مغامرة الشرق مهما كان الثمن.

وأعدت مذكرة لتبعث بها إلى المواطن الجنرال تحبطه علما بانها سوف تسعى لفتح باب المفاوضات بشأن الجلاء عن مصر مع العثمانيين والبريطانيين، ولم يلبث أن وصل إلى القاهرة مبعوث سري غير رسمي يحمل إلى نابليون رسالة من داخل الجيش والجمعية الوطنية تطلب إليه العودة فورا لأن فرنسا نفسها أصبحت في خطر وان الجميع يتطلع إلى عودة (البطل) لإنقاذها وان حكومة الإدارة تتلكأ في الاستجابة لانها تخشى عودته.

وماطلت بريطانيا في المفاوضة وكانت تريد انهاك الحملة ثم أبادتها ثم أسر سنابليون وجعله عظة وعبرة في التاريخ، وكان نابليون قد انتهى إلى انه لم يعد له خيار سوى العودة.. لن يستطيع الصمود في مصر وسط شعب متربص إلا إذا وصلته قوات لا تقل عن عشرة آلاف جندي ومؤن وامدادات كافيه وان ذلك أصبح مستحيلا، وقد فشل الزحف شمالا فشلا ذريعا وسجل أسود صفحة في تاريخه.

وانتهى إلى الأبد حلم الزحف شرقا ليرفع العلم المثلث الألوان فوق دلهي وكلتكا (وخلع دولة تجار البقالة كما كان يسمي البريطانيين) من السيادة على العالم ولم يعد أمامه سوى العودة مسرعا إلى الوطن الأم، لإنقاذه قبل أن يضيع كل شيء.

وتقوض الحلم الذهبي في إعلان "القرن الفرنسي" وتحقيق ما لم يستطع الإسكندر أن يحققه وكانت المقاومة المصرية هي العامل الأول والحاسم.

وتقلصت المدة التي قدرها للإقامة في مصر من خمسة عشر عاما .. إلى عام واحد فقط وعاد منها مهزوما أول هزيمة ولم ينسها أبدا.

ولم يملك مع ذلك سوى أن يعترف في مذكراته: "كانت أيامي في مصر هي أجمل أيام في حياتي وأعظمها مجدا وعنفوانا .. وتظل مصر في رأيي أهم وأجمل بلد في العالم".

***

الحملة الفرنسية

" اللحن الأخير "

تسلم الجنرال كليبر رئيس الأركان ثلاث رسائل مغلقة حملها إليه الجنرال "مينو" أو عبد الله كما تسمي بعد أن أعتنق الإسلام وتزوج من "آل البيت ونسل الرسول" كما قال .. وأبلغه أن القائد العام غادر مصر سرا من الإسكندرية وكلفه أن يحمل إليه الرسائل.

وكانت الرسالة الأولى تحمل قرارا بتعيينه نائب القائد العام في القاهرة، وخليفته وانه لن يقل عناية واهتماما بالقوات وسوف يستطيع من موقعه أن يوفر لها ما تحتاجه، وكانت الرسالة الثانية توصيات وتعليمات مسهبة مطولة عن حكم مصر وإداراتها وما خرج به من خبرة وتوصل إليه من حقائق وان يواصل العمل على نفس الطريق.

وكانت الرسالة الثالثة مفاجأة لم يتوقعها إذ أخبره القائد العام أنه أرسل قبل أن يغادر مصر رسولا إلى

الصدر الأعظم في استطنبول يعـرض عليـه الصلـح وإعادة الصداقة والتحالف الفرنسي العثماني، في مقـابل الجلاء التام عن مصر. جلاء يحفظ شرف وكرامة جيش فرنسا. وان عليه ان يواصل المهمة ويستكملها ويحتفـظ بالسر حتى ينتهي إلى نتيجة.

ويروي حامل الرسائل ان كليبر نظر بمرارة وقال " إذن طار العصفور من القفص" أي أصبحـت مصـر قفصا حبست فيه الحملة .. وعليه أن يجدل لها منفذا.

وكان معروفا عن كليبر انه جندي محترف، وانـه أوروبي لحما ودما، لا يستهويه الشرق ولا تجتذبه الـهند ويؤمن ان مجد فرنسا يتحقق على ضفـاف الرايـن لا النيل ولم يشارك في الحملة إلا لفرط ولائـه وإعجابـه بالجنرال بونابرت وقبل أسابيع فقط من رحيلـه رفـع كأسه وشرف نخبا: "أيها الجنرال انك عظيم كالعالم وهو ليس عظيما بالقدر الذي يتسع لعظمتك" ولكنه كان أيضا على رأس الذين أيقنوا أن الحملة والمشروع قد انتـهيا إلى الفشل التام وان المهمة أصبحت بحث طريق العودة بسلام وشرف وقد ألقيت على كاهله.

الحملة في ورطة

وكانت المهمة العاجلة والثقيلة التي عليه أن يقوم بها هي كيف يذيع الخبر على القوات ثم المهمة الأثقل كيف يعلنه للمصريين.

ولم يكن يخالجه شك في ان الصدمة سوف تكون شديدة الوقع على القوات وسوف تكون هزة عنيفة للمعنويات التي وصلت إلى الدرك الأدنى. كان الملل واليأس قد سريا في الصفوف وتفاقم الإحساس بأن الحملة أصبحت في ورطة بلا مخرج وان لابد من الجلاء بأي ثمن .. وكان هناك فريق آخر يرى أنه مادام البقاء أصبح مفروضا فلا مناص من ان يحولوا مصر إلى مستعمرة فرنسية استطانية يملكونها ويحكمونها مثل مستعمرات الكاريبي والباسفيك.

وانتهي نائب القائد العام إلى بيان أذاعه على القوات قال فيه "أيها الجنود ان ظروفا قاهرة اضطرت القائد العام بونابرت إلى العودة إلى الوطن، وهو يخبركم انه من هناك سوف يستطيع توفير كل ما نحتاجه ونطلبه كما سوف يعمل على عقد صلح مشرف يليق بكم ويعيدكم إلى الوطن".

واستخلص الجنود والضباط المغزى وانه لم يصبح أي معنى للقتال وان عل كل منهم ان يحافظ على حياته

حتى يعود. وجمع الجنرال كليبر أعضاء الديوان، من المشايخ والعلماء وألقى بيانا طلب إذاعته على الشعب جاء فيه:

"لقد استطاع القائد العام أن يكسب ثقتكم وإخلاصكم بنزاهته واستقامته وسوف أسير على نفس ما منحتموه له .. ولهذا قولوا لشعبكم الذي يلتف حولكم اطمئنوا ان حكم مصر انتقل إلى أيد أخرى ولكن ما يتعلق بسعادتكم ورفاهيتكم سوف يكون مستمرا متصلا".

واستمع المشايخ والعلماء في سكون وبرود وكما قال الجبرتي:

"انهم لا يجدونه باسما ظروفا مثل بونابرت الذي كان ينجح دائما في ترضية وإراحة جلسائه منهم".

ووضع نائب القائد العام جانبا وصية بونابرت وعكف على إعداد تقدير موقف وبيان بالمطالب التي تحتاجها الحملة والتي وعد القائد العام ان يوفي بها ويبعث بها من فرنسا ولم يملك إلا أن يواجهه بكل الحقائق المرة _ ان لم تكن (المأساة) التي بدا ان القائد العام لم يكن يدركها أو لم يكن يريد ذلك.

"لقد فقدت القوات نصفها في المعارك والانتفاضات ثم بفعل الوباء .. وهي الآن قوات منهكة مضعضعة

ومفلسة كما أكد آخر تقرير للكولونيل ستيف ـ مسئول المالية (وتفتقد القوات إلى كل المقومات والضرورات وفضلا عن نخائر والأسلحة والمؤن والمهمات فاننا نحتاج إلى قوة عشرة آلاف جندي على الأقل لكي نستطيع ان نصمد أمام اسوأ التوقعات والاحتمالات التي ننتظرها. وإذا لم نحصل على كل هذه المطالب فان بقاء الحملة هنا يصبح ضربا من العبث).

(ونحن مهددون في أي وقت لهجوم عثماني بريطاني مشترك وربا يكون ثلاثيا باشتراك الروس ويتساءل كثير من الجنود والضباط ما جدوى بقائنا هنا إذا كان الوطن في خطر يستدعي مغادرة القائد العام ولماذا لا نعود إلى الميدان الرئيسي في أوروبا بما اكتسبناه من خبرة وقدرة).

الإنجليز ينتهزون الفرصة

وكان الاميرال الإنجليزي سيدني سميث، حريصا على شن حرب نفسية مكثفة على القوات وبعد أن أفلتت منه نابليون الذي كان يحلم بأسره وعرضه في قفص في شوارع لندن لنصب جهده على إبادة الحملة بعد تحطيم معنوياتها واستطاع أن يسرب صحف فرنسية وأوروبية إلى صفوف القوات وعرفوا أنباء الحملة الضارية في

الجمعية الوطنية على المغامرة المصرية وان اللعنات تنصب على مغامرة (العدوان على الأراضي العثمانية والذي تمثله حملة مصر والتي لا جدال انها السبب الرئيسي في كل المصائب التي نواجهها الآن) ووصل إليهم البيان الذي أصدرته الجمعية الوطنية بالإجماع "دعوة الشعب الفرنسي للتعبئة ومقاومة الغزو الذي يوشك أن يزحف على أرض الوطن (لقد تحالفت أوروبا "الرجعية" كلها ضد الجمهورية والثورة).

واستخلص المصريون بدورهم كل المغزى للموقف المتفاقم الذي تتدفع نحوه الأحداث وقد أعلن الإنجليز انهم لن يكتفوا بالحصار البحري بل يعدون جيشا بريا للنزول والزحف حتى القاهرة للقضاء على الحملة وأعلنت الدولة العثمانية في اسطنبول انها سوف تبعث بجيش عثماني جرار يزحف من الشرق إلى القاهرة وبقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وان الدولتيْن البريطانية والعثمانية تنسقان معا هذا الهجوم.

وأدرك المصريون بالوعي والفطرة وقد صقلتهما الأحداث الجسام أي مصير يمكن أن ينتظرهم على أي حال وإذا ما نجح العثمانيون فسوف يعودون ويسترجعون مزهوين سيطرتهم على "جوهرة" الإمبراطورية العثمانية وسوف تتكرر مرة أخرى أشد

سوءات الماضي وإذا ما أنتصر البريطانيون فسوف يولون أنصارهم وعلى الأصح عملائهم المماليك ويحكمون عن طريقهم وقد رسخت لديهم منذ البداية أهمية مصر وحتمية ضمها إلى دائرة النفوذ الإمبراطوري وإذا ما أتفق الثلاثة على توزيع الغنيمة فيما بينهم فان المصير سوف يكون أشد بلاء إن لم يكن نهاية أو هاوية بلا قرار .. وبدأ البحث والتفكير وانتهى إلى انه لابد من "عمل" كبير يسبق الجميع ويثبت الحق لأصحابه الشرعيين وبدأ الإعداد والتخطيط لثورة ثانية تستخلص كل دروس الهزيمة الأولى وتكون فاصلة تبدأ بالاستيلاء على العاصمة والإجهاز على قوات الاحتلال وتبطل بذلك كل دعوى للغزاة بالتدخل باسم "تحرير البلاد".

الإعداد للثورة

وتألفت قيادة محددة من السيد/ عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ/ محمد السادات زعيم الثورة الأولى والشيخ/ محمد الجوهري وكانوا القيادة الروحية التي تقوم بالتوعية والتعبئة ثم من السيد/ أحمد المحروقي " شيخ شاهبندر" التجار والسيد مصطفى البشتيلي شاهبندر تجار بولاق وكان عليهم التمويل والتسليح.

وقسمت العاصمة إلى مناطق وأحياء لكل منها قيادته وقواته وسلاحه وتموينه للإعداد لهجوم مشترك على القيادة العامة الفرنسية ثم كل التكنات والمواقع معا.

وحقق أهل القاهرة ما لم يتصور أحد أن يقوموا به وصنعوا البارود وصنعوا القنابل من حديد المساجد ثم فعلوا ما يصعب تصديقه وهو صنع المدافع وذلك كما قال "بارتان" أحد مهندسي الحملة العسكريين: "أقيم معمل البارود في بيت قائد أغا في الخرنفش ويعمل لصنع القنابل وسبك المدافع ومصنع لإصلاح الأسلحة وجمعوا الحديد من المساجد والعمائر والحوانيت وتطوع العمال بلا أجر وقدموا ما لديهم من آلات وحديد وموازين.

وقدر عدد القوات التي أعدت للمعركة بخمسين ألفا خمسة عشر ألفا من سكان القاهرة وعشرة آلاف من أهل الدلتا والصعيد والنصف الآخر مغاربة وحجازيون متطوعون ثم مماليك تسللوا عائدين ثم عثمانيون أسوى تسللوا من الإسكندرية وتحددت ساعة الصفر يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠م.

وقائع الثورة

أعلنت الثورة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠م وبدأت في حي بولاق الحي الرئيسي وبزعامة السيد/ مصطفى

البشتيلي ولم تلبث أن عمت المدينة وامتلأت الشوارع بحوالي خمسين ألفا حاملين كل أنواع الأسلحة والبنادق والسيوف والحراب والنبابيت وأنضم إليهم النساء والأطفال واتجهت قوة منهم إلى القيادة الفرنسية العامة حيث حاصرتها واتجهت قوات أخرى إلى مختلف الثكنات وأحياء الأجانب ودهش الفرنسيون لهذه الجموع الحاشدة المسلحة ثم للهجمات الشرسة التي انصبت عليهم.

وكتب أحد الضباط في مذكراته: "فجأة تحولت القاهرة إلى مدينة مقاتلة نصبت المتاريس في كل شوارعها وانهمك المقاتلون في البحث عن كل ما يصلح من سلاح للقتال وخرجت كميات أسلحة كبيرة كانت مخبأة وأفلتت من عمليات التفتيش الواسعة وتمت تعبئة عمال لصنع وإصلاح الأسلحة وحتى سبك مدافع جديدة ونظم المقاتلون أنفسهم حسب الأحياء وآثار هذا التنظيم العفوي دهشة كبيرة لدينا واتجه الهجوم الرئيسي نحو مقر القيادة العامة وحاول الكولونيل دردان فك الحصار ولكنه اصطدم بمقاومة شرسة على أن أشد ما آثار الدهشة والمرارة العنيفة ان جميع الرجال المصريين الذين كانوا في خدمتنا ومرتبطين ارتباطا وثيقا بنا والذين أغدقنا عليهم كل أنواع العطف والعطاء كانوا

أول من بادروا بتزعم المتمردين وأصبحوا بين يوم وليلة أشد أعدائنا شراسة وعرض الجنرال وقف القتال مقابل العفو العام وكرر ذلك ولكن رفضت كل عروضه .. ولجأ إلى الحل السياسي والتحايل على الموقف وان يفرق الحلف العام الذي انعقد خلال الثورة وضم سكان القاهرة وآلافا توافدوا من الأرياف كما ضم فلول قوات المماليك الذين عادوا من الصعيد والدلتا، كما ضم أيضا أسرى عثمانيين تسللوا للانضمام إلى الثورة ومغاربة وحجازيين تولى بعضهم قيادة بعض الأحياء.

وتشجعت القوات المحاصرة في القيادة والثكنات واستماتت في القتال بعد عودة الجنرال واستطاع بعد أسبوع أن ينفذ إلى العاصمة وبدأت أول معركة في حرب المدن والشوارع في التاريخ الحديث ودارت المقاومة الضارية أشد الضراوة في كل شبر وركن من المدينة وسط دهشة وذهول الفرنسيين وكلما اشتدت فقد الجنرال صوابه وتعاظم حقده لتكون حرب إبادة ودمار شامل، تفوق كل ما أرتكب في يافا وعكا، بل وضع الأساس لما قام به النازيون والفاشيست بعد مائة وخمسين عاما.

وبلغت الحرب ذروتها في الهجوم على بولاق معقل الثورة الأول.

. بدأ الهجوم قبل شروق الشمس وأخذوا يضربــون بالمدافع وكانت بداخل الحي محصنة والثوار ممتنعــون داخل المتاريس ــ وأجابوا بإطلاق النار من المتــاريس والبيوت المحصنة ولكن نار المدفعية الفرنسية حطمــت المتاريس المقامة على مدخل الحي وأحدثت ثغرة أنطلق منها الجنود إلى شوارع بولاق وأخــذوا فــي إضــرام الحرائق في البيوت القائمة فيها واشتعلت واتسع مداهــا وامتدت إلى مباني الحي من مخازن ووكالات ومحــال تجارة فالتهمتها بكل ما فيــها مــن المتــاجر العظيمــة ودمرت هذا الحي الكبير وهدمت الدور ودفن كثير مــن العائلات وأبيدت تحت الأنقاض.

الثورة بأقلامهم

وكتب مؤرخ فرنسي للحملة: "لجــــأت القــوات الفرنسية لاستراتيجية جديدة هي (الحريــق المنــهجي) للبيوت ودمرت الحي بيتا بيتا عن آخره واستباح الجنود كل شيء السلب والنهب والاغتصاب وكان يحــدث لأول مرة وعلى أوسع مدى وبلغت الفظائع حدا أثار خــوف كليبر وقلقه من العواقب وأصدر علــــى الفــور أمــرا (بمعاقبة) كل من يضبــــط متلبســا بالنــهب والســلب ـ الاغتصاب بالإعدام) ومع وعد بان الغنائم سوف توزع معرفة القادة.

وطلب الثوار التسليم في ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠ واستمرت ثورة القاهرة الثانية ٢٣ يوما مجيدة ولا تزال تبحث عن مؤرخ.

كانت القاهرة مدمرة تماما وقد أتت الحرائق على معظم الأحياء وسمى الحريق (الموت الأحمر) وكان يجهز على أحياء كاملة ومن الأحياء التي احترقت بأكملها ودفن سكانها تحت الأنقاض حي الأزبكية والفوالة والرويعي وبركة الرطل وباب البحر والخروبي والعدوى وباب الشعرية وخط الساكت ولكن وقع السهول على بولاق.

وتوقف القتال يوم ٢١ أبريل ولكن لم يستتب الأمر حتى يوم ٢٦ حيث دعا الجنرال أعضاء الديوان العام إلى اجتماع وأعلن فيه العفو العام لجميع السكان تعبيرا عن (الشهامة الفرنسية) ولم تمض أيام حتى صدر إعلان آخر متناقض تماما: تقرر ان يؤدي سكان القاهرة غرامة قدرها اثنا عشر مليون فرنك وان يدفع نصف المبلغ نقدا والنصف الآخر بضائع بما تحتاجه القوات.

وتقرر ان يقدم سكان القاهرة كل ما لديهم من أسلحة وتبدأ بتقديم عشرين ألف بندقية وعشرة آلاف سيف وعشرين ألف طبنجة.

وتقرر فرض غرامة قدرها ثمانمائة ألف فرنك على الشيخ محمد السادات وأن تصادر كل أملاكه وان يعتقل حتى يكشف كل أمواله المخبأة.

وتقرر غرامة قدرها ٢٦٠ ألف فرنك على الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ الجوهري.

وكان الجنرال يتهم الشيخ السادات بأنه مدبر الثورة الثانية كما حدث في الثورة الأولى.

وظل مصرا على سجنه وتعذيبه وضربه مرتين في اليوم حتى أرغمه على إصدار بيان مطول يستنكر فيه الثورة ويتبرأ منها ويعلن ولاءه التام للجمهورية والقائد العام بونابرت ونائبه كليبر وأذاعه على الناس.

واستطاع السيد عمر مكرم النجاة وكذا السيد أحمد المحروقي واستشهد مصطفى البشتيلي.

وفرض غرامة ٥٠ ألف فرنك على طائفة الاسكافية لن شيخهم كان قائد أحد الأحياء. وأسرف الفرنسيون في إرهاق سكان القاهرة وإذلالهم واعتقال الكثيرين لدفع الغرامات وفتشوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح (واشتد الضنك بالناس مما لاقوه من المصائب والأهوال وخربت بيوت كثيرة كانت عامرة.. وخرج كثير من الناس عن أموالهم وباعوا متاعهم وبات كثير منهم في السجون وهاجر من استطاع الهجرة

فرارا من الظلم والاستعباد وقلما يوجد في تاريخ الثورات ما يشبه ما عانته القاهرة بعد الثورة الثانية).

وبدأ الجنرال تطبيق برنامج الاستعماريين وتحويل مصر إلى مستوطنة فرنسية تعتمد في التمويل والتسليح والدفاع عن نفسها، وبدأ بأن قرر تجنيد قوات محلية ملحقة كرديف بالقوات الفرنسية وأوكل إلى مغامر يوناني بتكوين فيلق يوناني وإلى مغامر ماروني بتكوين فيلق لبناني يجند من مرتزقة مستوردين وقرر شراء عدد من العبيد السود لتكوين فيلق لخدمة الجيش ودق الطبول وكلف المعلم يعقوب وهو قبطي خرج على الإجماع الوطني وانضم للفرنسيين بتكوين فيلق قبطي.

وبدأ إعداد برنامج اقتصادي لتنمية الموارد (تعديل الضرائب).. ولضمان صمود القوات حتى تحل المشاكل في إطار الصلح الأوروبي العام.

عاقبة البطش

ولم يقدر للجنرال ان يهنأ بالعرش الجيد الذي كان يعده لنفسه حاكما عاما (لأهم وأجمل بلد في العالم) كما كان يكرر القائد العام.

وبينما كان يتجول في حديقة القيادة ويعاين الإنشاءات الجديدة وبعد مأدبة غذاء فاخرة أقامها

الضباط تكريما به فوجئ بشاب صغير يمده بيده إليه بطلب وحين مد يده لتسلمه لنقض عليه وطعنه ثلاث طعنات قاتلة بخنجر وحينما تدخل المهندس الذي كان يرافقه طعنه الشاب أيضا وسقط الاثنان.

وهرع الضباط إلى مكان الحدث (المروع) وجرى البحث عن الجاني حتى وجدوه مختبئا في الحديقة وذاع النبأ في المدينة على الفور وأثار فزع الجميع، توقع المصريون مذبحة أخرى وتوقع الفرنسيون انتفاضة أشد ولكن لم تلبث القوات ان انتشرت في المدينة وسارع المشايخ والعلماء لتهدئة الأهالي. وتم التحقيق مع القاتل.

وعذب أشد العذاب علي يد "برطلمي" رئيس البوليس وأصر على أن ليس له شركاء وأنه فعل ذلك انتقاما من مذابح كليبر ولإهانته وإذلاله للشيخ السادات.. ومع ذلك أضيف أربعة طلبة أزهريون لقائمة الإتهام.

وعقدت محكمة عسكرية حكمت على الطلبة بالإعدام بقطع الرأس وعلى سليمان الحلبي القاتل بالإعدام على الخازوق بعد قطع ذراعه.

وأقيمت جنازة عسكرية مهيبة للجنرال.

وكانت المدافع تطلق كل نصف ساعة وبعد انتهاء الجنازة دعى المشيعون لمشاهدة إعدام القاتل وصف شاهد فرنسي ماحدث:

"بدأ المشهد بقطع رؤوس الطلاب الثلاثة وكان الرابع هاربا لم يعثر عليه، ثم قام برطلمي بحرق ذراع القاتل ثم قطعها ثم تولى وضعه على الخازوق وتصرف سليمان بشجاعة وكان يردد الشهادة وآيات من القرآن وأنصرف الحضور وظل سليمان يحتضر على الخازوق لمدة أربع ساعات وفي النهاية طلب كوب ماء من الحارس الفرنسي الذي كان مشفقا عليه وبعد ان ناوله إياه أسلم الروح".

/ وكان اغتيال كليبر بداية النهاية وتوالى العد التنازلي سريعا نحو الهاوية تولى الجنرال (عبد الله) مينو القيادة بالأقدمية ولم يكن يحظى بأي تقدير أو احترام بين الضباط وليس لاعتناقه الإسلام أو زواجه من مصرية فحسب ولكن لافتقاده لأي تاريخ أو سجل عسكري ولاعتماده على (علاقته الوثيقة ببونابرت الذي كان يقربه ويستريح إليه) وكان مينو يعتقد على العكس انه وحده الذي يستطيع تحقيق المشروع الاستعماري الاستيطاني وانه بإسلامه ومصاهرته للمصريين وقدرته على الاندماج بينهم أصلح من يقنعهم بمزاياه.

قادة الحملة يختلفون

ولم يلبث أن سرى الشقاق والخلاف في صفـــوف كبار الضباط الذين يعتقدون انهم أحق منـــه بـــالمنصب وانعكس ذلك على صفوف القوات التي تفاقم فيها الملـــل واليأس خاصة انه لم تصل أي قـــوات أو إمـــدادات أو تعليمات وتفسخ وتعثر مشروع (الفيالق) المحلية أو إقامة المستوطنة الفرنسية وبدا للقوات ان باريس قد أهملتـــهم ونسيتهم تماما.

وأدرك البريطانيون ان الساعة قد حانت للإجـــهاز على الحملة نهائيا .. وبدأ الإعداد للهجوم الأخير الحاسم وباشتراك الاسطول وقوات برية عثمانية وبريطانية.

ونشبت المعركة في أبي قير مرة أخرى وكـــانت دامية قتل فيها ثلاثة آلاف جندي وأسر ثلاثـــة آخـــرون وأصيب وجرح ألف وخمسمائة ولم يكن هناك منـــاص من التسليم بدون قيد أو شرط في ١٨ أغســـطس ســـنة ١٨٠١م.

ووافق البريطانيون على ترحيل الحطام المتبقـــي من الحملة والذي لم تعد له قيمة عسكرية تذكر خاصـــة وقد عاد الطاعون وتفشى بينهم وكان الجنرال مينو ممن أصيبوا به.

وتم في أكتوبر سنة ١٨٠١م جلاء عشرة آلاف وخمسمائة جندي وهم الذين تبقوا من ثلاثة وثلاثين ألفا هبطوا إلى مصر قبل ثلاث سنوات ووافق البريطانيون على رحيل ستمائة مدني كانوا خليطا من الأروام والشوام والأرمن ومن المصريين .. كان أبرزهم المعلم يعقوب الذي أدرك انه لم يعد له مكان في مصر وزعم انه سوف يبحث في أوروبا عن مشروع لاستقلال مصر.. ولم يمهله القدر ومات في عرض البحر.

ووصلت بقايا الحملة إلى طولون وأعلنت حالة الطوارئ القصوى في المدينة وسادها الرعب خوفا من تسرب الطاعون وكان استقبالاً أليما لحملة خرجت قبل ثلاث سنوات لكي تغير التاريخ وتبسط السيادة الفرنسية على العالم.

وأصدر بونابرت بيان ترحيب بعودة الحملة قال فيه (لقد خلفتم وراءكم في مصر أثرا باقيا ولن ينسى التاريخ أبدا ما قام به الفرنسيون من نقل حضارة وعلوم أوروبا إلى هناك ولن يطول الوقت حتى تثمر وتؤدى إلى نهضة تاريخية تشمل كل جوانب الحياة).

ولم يكد الجلاء يتم حتى نشب الصراع واحتدم بين ثلاث قوى كانت تتربص وتنتظر تلك الساعة.

وكان أثمن ما خرجت بـه الحملـة والصفحـة الناصعة في سجل المأساة كان وثائق ودراسات "المجمع المصري" وما عكف عليه علمـاء الحملـة، وقـد أراد البريطانيون الذين كانوا يدركون أهميتها الاستيلاء عليها كغنيمة حرب ولكن وحينما جاء دور تسـليم مقتنيـات أعضاء المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون أحتج أولئك الأعضاء على حرمانـهم ثمـرة أبحاثـهم وعلومـهم واكتشافاتهم وأوفدوا ثلاثـة منـهم لمقابلـة الجـنرال هتشيسون لإقناعه بالعدول عن هـذا الطلـب فرفـض طلبهم. وقرروا بإجماع الرأي الامتناع عن تسليم هـذه الكنوز وأنذروا القائد الإنجليزي بإحراقـها بـدلا مـن التفريط فيها وتسليمها وأبلغوه أنهم يلقون علـى عاتقـه تبعة حرمان العلم من هذه النفائس في حالـة إصـراره على طلبه وبهت القائد الإنجليزي أمام هذا التهديد وقبـل أن يتنازل ويترك لهم مقتنايتهم ولكنه منعهم مـن أخـذ الآثار التي أرادوا تهريبها معهم وحجزها بحجـة أنـها ملك مصر..

وقد نقلها إلى مراكبه وكان من بينها "حجر رشـيد" وحملها إلى المتحف البريطاني في لندن.

***

الحملة الفرنسية

بعد الجلاء " الصراع والأطماع "

تحولت مصر بعد جلاء القوات الفرنسية نهائيا إلى أقرب ما تكون بثكنة عسكرية تزخر بالقوات الأجنبية على أرضها وكما لم يسبق من قبل في تاريخها.

كان هناك جيش عثماني ضخم زحف من الشرق ووصل من العريش إلى القاهرة بقيادة يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم وكان عدده يقرب من ثلاثين ألف جندي معظمهم من الانكشارية "العتاة" وقد امتد زحفه ليحتل مدن مصر الوسطى بني سويف والمنيا وأسيوط. وكان هناك جيش عثماني آخر يرابط في الإسكندرية وأبو قير ويبلغ تعداده ستة آلاف جندي ويسانده الأسطول العثماني على الشواطئ وكليهما بقيادة حسين قبطان باشا "قومندان العمارة التركية" أي الأسطول.

وكان القوات الأخرى بربطانية وتضم جيشان أيضا كان الأول يضم ستة عشر ألف جندي بقيادة

الجنرال هتشون وقد زحف من الإسكندرية حتى وصل القاهرة.

وكان الجيش الآخر قد جاء من الهند ووصل السويس ثم تقدم نحو العاصمة ورابط بالجيزة وكان يتكون من قوات هندية تبلغ ستة آلاف جندي بقيادة الجنرال بيرد الإنجليزي.

وكانت الدولتان تركيا وبريطانيا قد عقدتا حلفا عسكريا في يناير سنة ١٧٩٩م، ينص على ضمان الحكومة البريطانية سلامة أملاك السلطنة العثمانية كما كانت قبل الحملة الفرنسية وأتفق على أن تكون المساعدة والمساندة قاصرة على حصار الأسطول البريطاني للشواطئ ومنع وصول أي مدد للقوات الفرنسية ولكن أدت الهزائم الساحقة التي منيت بها الحملات العثمانية ضد نابليون ثم كليبر إلى تعديل التطبيق وان تشترك قوات بريطانية برية في القتال مع القوات التركية.

وكانت هناك قوة ثالثة لا توازي أي من هاتين القوتين ولكنها لم تكن تقل عنهما عزما وتصميما على الفوز في الصراع الذي بدأ وتصاعد فور الجلاء.

وكانوا يرون في أنفسهم الحكام الشرعيين والتاريخيين عبر القرون لمصر وانهم الذين حملوا عبء

المقاومة والمواجهة ضد الفرنسيين ولابد ان يستردوا حقوقهم وسلطاتهم كاملة.

ولكنهم كانوا قد أنهكوا واستنزفوا في المعارك ثم في الصراعات الداخلية فيما بينهم وقد انتهوا إلى الفرقة بينهم إذ تصالح أكبر الزعماء مراد بك مع الفرنسيين في فترة كليبر، وانضم إليهم ضد العثمانيين والبريطانيين ولكن عاجله الموت بالطاعون، وبقى إبراهيم بك على ولائه للبريطانيين، وانشق فريق بزعامة حسن بك وانحاز للعثمانيين. وكان العثمانيين يرون أن اللحظة المرتقبة ــ طويلا ــ قد حانت وان لابد للدولة من أن تسترد سلطتها ومكانتها كاملة في مصر أثمن الولايات وأهمها وجوهرة الإمبراطورية الأولى.

وكان المماليك قد استطاعوا بعد فترة قصيرة من الهزيمة أمام السلطان سليم أن يستردوا السلطة الفعلية بما لهم من خبرة ودراية طويلة، وأصبح "الأمراء المصرية" كما كانوا يسمون أصحاب الحلول والطول، وأصبحت مصر "مستقلة ذاتيا" ولم يتعد الوالي العثماني حدود القلعة واستلام الخراج وأحياء الشعائر الدينية.

وكاد أحد المماليك "العظام" على بك الكبير ان يقوض أركان الدولة وان يقيم بدلا منها "مملكة عصرية عربية" تضم للشام وشبه الجزيرة العربية. ولم تتغلب

عليه الدولة إلا بالسلاح العثماني الخسيس الشهير وهو شراء أقرب الناس إليه محمد بك أبو الدهب.

ولهذا تقرر ان يكون البدء في استعادة السلطة هو القضاء نهائيا على المماليك ووصلت التعليمات من إسطنبول إلى الصدر الأعظم وقومندان العمارة بوجوب إبادتهم عن أخرهم وإرسال من يبقى منهم مكبلا بالأغلال إلى إسطنبول لمحاكمتهم أو توطينهم في ولاية أخرى غير مصر.

وكان المماليك منذ البداية يتوجسون شرا من العثمانيين ويتوقعون الغدر ولكن تكفل الصدر الأعظم وقومندان العمارة بتبديد أي مخاوف لديهم وان السلطان قد قرر توليتهم مقاليد السلطة ورد اعتبارهم كاملا.

وكان عدد المماليك قد نقلص إلى ما لا يزيد عن أربعة آلاف، وأصدرت الدولة فرمانا بمنع جلب الرقيق من بلاد الشركس حتى لا يستطيعوا إكمال النقص في عددهم".

وكانوا قد استقطنوا عددا من الفرنسيين الذين اختاروا البقاء ولم يرحلوا مع القوات. كما استردوا عددا من الرقيق الأسود من تجارة في سنار ولكن درعم الذي كانوا يحتمون به كان البريطانيون وقد تسرع الجنرال هنشتون بدوره في التقرب إليهم وتجاوز عن اتباع مراد

بك الذين حاربوا مع الفرنسيين وحاول أن يضم الجميع تحت المظلة البريطانية. بلا شك للاعتماد عليهم.

ولم يقف الحذر والحيطة أو الحماية البريطانية حائلاً دون إعداد الصدر الأعظم وقومندان العمارة مؤامرة محكمة تحقيق الهدف واتفقا فيما بينهما على اقتسام المهمة وتوزيع أدوارها.

يقوم القومندان بدعوة أتباع مراد بك ورئيسهم الجديد وخليفته عثمان بك الطنبورجي إلى الإسكندرية لكي يبلغهم بوصول فرمان من السلطان بتوليتهم حكم البلاد دون اتباع إبراهيم بك. وأن يدعوا الصدر الأعظم إبراهيم بك وأتباعه في القاهرة بنفس الحجة، ويتم القضاء عليهم جميعا خلال الاحتفالات التي سوف تكون بالغة البذخ.

"ولبى المماليك الدعوة وسافروا إلى الإسكندرية واستقبلهم حسين باشا قبطان في معسكره وبالغ في الحفاوة بهم وأنزلهم في ضيافته عدة أيام ثم تلا عليهم فرمان قال أنه صدر من السلطان بإعلان رضائه عنهم وإبقائهم في مناصبهم التي كانوا عليها من قبل في حكومة البلاد، ثم دعاهم احتفاء بهذه المناسبة إلى زيارته في بارجته الراسية في خليج أبو قير".

ونزل البكوات معه في زورقه الخاص لينقلهم إلى البارجة.

وبعد أن أبتعد الزورق في البحر وأصبح في اللجة التقوا بمركب آت من عرض البحر وفيه جماعة من السعاة أخبروا ان لديهم رسالة باسم قبطان باشا فنهض الباشا وتركهم بحجة الاطلاع على الرسائل وانتقل إلى المركب الآخر وأمر ان يدفع به وبقي المماليك وحدهم وكانت هذه العلامة نذيرا بانفاذ المؤامرة وما هي إلا لحظة حتى أخذ الرصاص ينهال عليهم من رجال قبطان باشا وعلموا انهم وقعوا في الفخ الذي نصب لهم ودافع المماليك عن أنفسهم دفاعا شديدا وقتلوا كثيرا من العسكر ولكن غلبوا على أمرهم في النهاية وقتل في هذه المؤامرة عثمان بك الطنبورجي وعثمان بك الاشقر ومراد بك الصغير وعلى بك أيوب ومحمد بك المعقوخ ومحمد بك الشاري "وجرح كل من عثمان بك البرديسي وحسين بك وسليمان أغا جروحا بليغة وسبقوا مع من بقى من المماليك إلى بارجة قبطان باشا، واعتقلوا فيها".

(وكان الانجليز يجهلون المؤامرة ولما علم بها الجنرال هتنشون غضب غضبا شديدا واعتبرها عملا عدائيا ضد الإنجليز وعدها وحشية وكادت الحرب ان تنشب لولا ان سلم حسين باشا القبطان بإطلاق سراح

المماليك المسجونين وتسليم جثث القتلى ونقل الجميع من أبو قير إلى الإسكندرية واحتفلوا بدفن القتلـــى احتفـــالا عظيما).

واختلف اسلوب الصدر الأعظم وكان أقل فظاعـــة وأشد عرابة.

"دعا الصدر الأعظـــم إبراهيـــم بـــك والبكـــوات والمماليك الذين كانوا في القاهرة وضواحيها إلى ديـــوان عقده بقصره وأمر بتلاوة فرمان قال انه وصـــل مـــن اسطنبول ويقضي بتعيين ابراهيم بك "شيخ البلد" وهـــو اللقب الذي يعرف به رئيس حكومة مصر فـــي عـــهد المماليك. وبعد ان أغدق عليهم الهدايا ومناهم بـــالوعود الخلابة قلب لهم ظهر المجن وأمر بتلاوة فرمان آخـــر ينقض الفرمان الأول ويقضي بالقبض عليهم وتكبيلـــهم بالحديد وإرسالهم إلى الاستانة وقد قبض عليـــهم فعـــلا وسيقوا إلى سجن القلعة وصدرت الأوامر إلى العســـكر العثمانية بالقبض على كل من يعثرون عليه من المماليك في القاهرة وضواحيها وتهديد من يؤديهم مـــن النـــاس وأنفذ الصدر الأعظم طاهر باشا من قواد الجند الالبانيين للقبض على محمد بك الالفي وذهبـــت طائفـــة أخـــرى للقبض على سليم بك دياب الذي فروا حتـــى بمعســـكر الجيش الإنجليزي الذي كان مرابطا في الجيزة.

ووجه الجنرال هنتشتون إنذارا إلى الصدر الأعظم بان يطلق سراح الجميع وألا تولى ذلك بالقوة وحمل الإنذار الجنرال ستيوارت وحذر الصدر الأعظم من عواقب نشوب القتال.

وأطلق سراح المماليك "وذهبوا برجالهم وأبنائهم وإخوانهم وانضم إليهم الناجون من مؤامرة أبو قير، وسكنوا الجيزة في حماية الإنجليز .. وبلغ عددهم ٢٥٠٠ أقسموا على الانتقام من الأتراك.

وفشلت المذبحة الكبرى، ولكنها أرست قاعدة أن ليس هناك حل للمماليك بديلا عن الإبادة!!

ولم يقدر لهم مع ذلك أن يمتعوا طويلا بحماية الإنجليز، فقد انتهت الحرب الأوربية التي استمرت منذ عودة نابليون من مصر إلى صلح عام بين فرنسا وبريطانيا وهولندا وأسبانيا "الدول الكبرى" وكان من أهم شروطه والتي حرص نابليون على تنفيذها كاملة جلاء القوات البريطانية عن مصر. والذي لم تجد بريطانيا مناصا من تنفيذه ولم يفد تعديل الجين.

واشتد قلق المماليك ولكن البريطانيين طمأنوهم بأنهم سوف يعودون ثم برهنوا على ذلك بأن قرروا اصطحاب "محمد بك الألفي" أقوى زعمائهم إلى بريطانيا للاتفاق على خطط المستقبل وسافر الألفي وأقام

أكثر من عام في بريطانيا وأعدت معه خطة تقضي بأن يتولى السلطة في حماية الاسطول البريطاني، وعلى أن تحتل الإسكندرية ورشيد ودمياط.

(ورجع الألفي من إنجلترا تنقله سفينة حربية وضعتها الحكومة البريطانية تحت تصرفه ووصل إلى أبو قير سنة ١٨٠٤ وسار فورا إلى رشيد والتقى هناك بالمستر بترونشي نائب القنصل البريطاني. ثم أقلته سفينة القنصل في النيل يرفرف عليها علم بريطاني وأبحرت به إلى القاهرة).

وكان عثمان بك البرديسي قد تولى زعامة المماليك في غيبته وحينما علم بعودته دبت في نفسه عقارب الحسد وخشي من عودته مؤيد الجانب من أحد الدول العظمى، وعلى طريقة المماليك أنفذ البرديسي طائفة من رجاله للقبض على الألفي وقتله وكاد الألفي أن يقع في الشرك لولا أن هرب ونجا ولاذ بالفرار إلى الصعيد .. وكان وراء خطة البرديسي قائد القوات الألبانية الذي بدأ يظهر على الساحة ويدعى محمد علي.

وفشلت الخطة البريطانية التي أعدت في لندن على مدى عام.

ولم تدرك أي من القوات الثلاث العثمانيين أو المماليك والإنجليز أن هناك قوة رابعة (تنمو وتشتد

ويقوى ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوى الثلاث أو تحسب لها حسابا على انها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعي في تقرير مصير البلاد وهي قوة الشعب المصري).

وكان الفرنسيون هم الذين أدركوا تلك الحقيقة ومدى قوتها وخطرها وحينما بدأت بوادر الزحف التركي البريطاني أذاع القائد العام الجنرال "عبد الله" مينو بيانا على الشعب جاء فيه:

"إن الإنجليز الذين يظلمون كل جيش البشر قد ظهروا في السواحل ونحن عازمون على ردهم جميعا على أعقابهم، وليس على المصريين سوى أن يلزموا السكينة ومن سيتحرك بالفتنة جزاؤه القتل كما وقع من النكال والمغارم من قبل"

خالص الفؤاد

عبد الله جاك مينو

وجمع القائد العام أعضاء الديوان العام وألقى عليهم تبعة حدوث أي فتنة خلال الاشتباك مع الغزاة.

ولم يطمئن مع ذلك، وأمر باعتقال الشيخ السادات في القلعة، ثم تضاعف قلقه وأمر باعتقال المشايخ عبد

الله الشرقاوي ومصطفى الصاوي وسليمان الفيومي (وأصعدوهم إلى القلقة في الساعة الرابعة من الليل بعد أن نقلوا إليهم الشيخ السادات وأذاعوا ان المشايخ المعتقلين لا خوف عليهم ولا ضرر وانهم معززين مكرمين وخصصوا لكل شخص منهم خادما يختلف إليه في أعماله وما يحتاج إليه وسمحوا لمن يريد زيارتهم من في القلعة بتصريح كتاب).

ثم اعتقلوا خمسة عشر من كبار تجار واعيان القاهرة وانضموا إليهم في القلعة في نفس الأحوال "ولم يفرج عن المشايخ والأعيان وباقي المحبوسين في القلعة إلا بعد التسليم".

وخرج المعتقلون من القلعة (وقد كونتهم الحوادث وثقفتهم التجارب وكان لهم فضل كبير في إظهار شخصية الأمة وتوجيهها لما فيه خيرها وصالحها ونالوا هذه الزعامة بما كان لهم من المقام المحمود بين الناس قبل الحملة الفرنسية وما أكسبهم اضطهاد الفرنسيين من المحبة والجلال وما اشتهروا به من نصرة المظلوم وحماية الضعفاء وكانوا أصحاب الفضل الأكبر واليد الطولي في الحركات الشعبية التي ظهرت في توجيه إرادة الأمة إلى مقاومة الحكم الفرنسي ثم مقاومة حكم المماليك ثم مقاومة الحكم التركي ثم إحياء سلطة الأمة

باختيار ولي الأمر وإجلاسه على عرش مصـــر) وقـد أراد نابليون، وكان واثقا تماما من قدرته على أن يجعل من هؤلاء العلماء والتجار والأعيان طبقة سائدة وموالية ويعتمد عليها في سياساته ومشـاريعه ان يخلـق منـها "بورجوازية محلية كوبرادور" بالمعنى المعاصر تعمـل سماسرة ووسطاء في تحقيق حلم حياته بالسيطرة علـى السيادة والتجارة في الشرق.

وقد خيبوا آماله منذ اللحظـة الأولـى وأيقظـت الصدمة كل الوعي والتراث الكامن وأصبحـوا القيـادة والزعامة الروحية والمدنية و"طليعة البرجوازية الوطنية الرائدة" التي أرست وحددت أهـداف وسـيرة الثـورة المصرية لمائتي عام بعدهم.

كان أرفع نماذجهم ان لم يكن الأب الروحي لتلـك الطبقة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف "أكبر زعمـاء الشعب نفسا وأكثرهم شجاعة وإقداما وأعظمـهم نفـوذا وأرفعهم كلمة .. زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء".

وكان السيد عمر مكـرم هـو أول مـن قـوض استراتيجية نابليون في العزل بين المصريين والممـاليك وانه جاء ليحررهم من سطواتهم، وكان السـيد عمـر مكرم مهندس "الحلف الوطني" لمقاومة الغازي الاجنبي.

(دعا الشعب إلى التطوع للقتال وبث في الجماهير روح المقاومة وقبل أربعة أيام من موقعة الأهرام صعد عمر أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة وأنزل منها بيرقا كبيرا أسمته العامة البيرق النبوي ونشره بين يديه ونزل من القلعة ناشرا علم الجهاد يشق المدينة من شرقها إلى غربها وحوله الآلاف من الناس زاحفة إلى الجهاد).

وحينما هاجرا المماليك بعد هزيمة "الأهرام" وبقى المصريون وحدهم لم تثبط عزيمته، وكان من أعمدة ثورة القاهرة الأولى وقد نجا بنفسه بعدها إلى سوريا وظل حتى استرضاه نابليون وعاد معه من هناك بعد حملة سوريا "الفاشلة".

وتكرر الأمر بعد الثورة القاهرة الثانية، وطلب كليبر رأسه ولكنه استطاع مرة أخرى النجاة مع السيد أحمد المحروقي، وظل هناك حتى جلاء الفرنسيين .. وعاد ليستعيد نفس المكانة والزعامة وليتصدر الأحداث "الجليلة" التي تحققت وكان زميله ورفيق جهاده الشيخ محمد السادات، وقد حمله نابليون مسئولية ثورة القاهرة الأولى التي أطاحت باجلاله وأوهامه ولكنه خشى ان يمسه سوء نظرا لمعرفته بمكانته بين الناس وحمله كليبر مسئولية ثورة القاهرة الثانية وسجنه وعذبه خلال السجن.

وكان من أول أسباب اغتيال كليبر سخط العامة لما نزل بالشيخ السادات في السجن وقال نابليون في مذكراته ان أسوأ ما ارتكبه كليبر كان ما فعله بالشيخ السادات وجهله بما يمكن ان يكون لذلك من عواقب.

وكان الشيخ السادات أول من اعتقلهم "مينو" لدى بداية الغزو ولكن فى ظروف مغايرة واشتهر الشيخ السادات بشجاعته (وكان جريئا في الحق لا يهاب من بيدهم سلطة الحكم، وفي أول اجتماع بين العلماء والمماليك لتنظيم المقاومة صاح في مراد بك ان كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم وآخر أمرنا معكم انكم ملكتمونا للأفرنج ولم يجرؤ على الرد عليه وحملها في نفسه ضده.

كانوا كوكبة فريدة متميزة في تاريخ وتراث مصر ضمت الشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير والشيخ الفيومي والشيخ الصاوي والشيخ المهدي .. والآلاف من تلاميذهم ومريديهم.

وكانت الصلات وثيقة وعميقة بين العلماء وبين التجار والأعيان، وقد قام هؤلاء بتمويل المقاومة وتنظيمها وكان مصطفى البشتيلي سر تجار بولاق وأحمد المحروقي شهبندر تجار مصر في الطليعة من ثورتي القاهرة الأولى والثانية واستشهد البشتيلي في

الدفاع عن بولاق ونجا المحروقي مع السيد عمر مكـــرم بالهرب إلى سوريا.

(وقد نشأ المحروقي في بيت تجاري عريق وكـــان أبوه من كبار تجار الحرير ورث عنه ابنه تجارته وكان على غاية من الحذق والنباهـــة أخـــذ واعطـــى وبـــاع واشترى وشارك وتدخل وتعامل مع التجـــار وحاســـب على الألوف وذاع صيته في الأقطار البعيدة وأصبح من أكبر تجار الصادرات والواردات. ونال من الناس منزلة ساحقا لا تقل رفعا وسموا عن منزلة كبـــار الرؤســـاء والعلماء).

وبذلك استطاعوا ان يستوعبوا كل دروس وعظات الحملة ويستخلصوا أهم نتائجها ووضعوا بذلك تـــاريخ مصر على النهج والمسار الصحيح.

مصر بعد الحملة

(ظهرت الأمة شخصية جديدة وروح فتية وعزيمة قوية كونتها الحوادث والشدائد وصقلتها التجارب والآلام كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران علـــى النضـــال والكفاح السياسي وتطور في الحياة القومية رأت الأمـــة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينـــها وهـــز

أعصابها واستثار فيها روح التطلع إلى المجد والعلا ثارت في وجه الحكم الفرنسي غير مرة وقاومت نابليون قاهر المملوك وزلزل العروش وايقظت الحوادث روح المقاومة الشعبية وظهرت الأمة المصرية العريقة في الحضارة والمدنية بشخصية جديدة وروح معنوية جديدة تختلف كثيرا عن حالتها القديمة).

(لم تفقد الأمة المصرية مواهبها التي ورثتها عن المدنيات المتعاقبة بل ظلت هذه المواهب كامنة تحت الرماد وما أن صدمنها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تصقل المعادن وتجلي جواهرها في لهب النار).

ظهر الشعب المصري قويا فتيا لا يمل الجهاد ولا ينكص على الأعقاب ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناصل بكل كيانه في وجه أقسى التحديات.

كما كتب شيخ المؤرخين عبد الرحمن الرافعي.

***

الحصاد

ثورة ديموقراطية شعبية

(منذ ثورة القاهرة الكبرى في أكتوبر ١٧٩٨ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ شهدت مصر العديد من الانتفاضات والثورات صنعت تاريخ المنطقة وصاغت مسيرتها، وان كان بعضها مازال لم يستوف حقه من التقييم والتقدير ويبحث عن مؤرخ.

ولعل الثورة (الأم) هي ثورة ٩ يوليو ١٨٠٥ التي تكللت بتولية ضابط ألباني صهرته مصر واليا عليها بإرادة علمائها وتجارها وصناعها وجماهير شعبها قاطبة. وبشروطهم.

وكان محمد علي عند حسن الظن به وأثبت صدق الاختيار وبنى مصر الحديثة.

كان أسطورة مصرية شرقية عصرية .. هي الأولى من نوعها في تاريخ الشرق بحيث تستحق ان نذكرها خاصة في هذه الأيام ونحن نراجع في حوار ساخن آثار الحملة الفرنسية).

أجتمع وكلاء الشعب من العلماء والتجار وشيوخ الصنائع في يوم الاثنين ١٣ مايو ١٨٠٥ بدار المحكمة بيت القاضي ليتداولوا الموقف في البلاد.

واحتشدت الجماهير في فناء المحكمة وحولها، تأييدا لزعمائهم والذين اجتمعت آراؤهم على عزل الوالي العثمانى خورشيد باشا وتعيين القائمقام محمد على واليا بدلا منه.

وقام وفد منهم وانتقل إلى دار محمد على وأبلغوه بما اتفقوا عليه وأنهم يرفضون بقاء هذا الباشا واليا عليهم، وقرروا فيما بينهم تعيينه بدلا منه (على أن تكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدل والخير).

وفوجئ محمد على وتردد وقال انه لا يستحق هذا المنصب وان هذا يمس حقوق السلطان وهو يخشى المسئولية وان ينسب إليه انه المحرض على ذلك، وأصر العلماء وأكدوا (هذا رأي الجميع والكافة والعبرة برضا أهل البلاد، وان نأخذ عليك العهود والمواثيق أن تسير بالعدل ولا تبرم أمرا إلا بمشورتنا).

وقبل محمد على وحينئذ نهض السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي وألبساه خلعة الولاية وتمت مبايعة محمد على وأمروا أن ينادي به في المدينة واليا على مصر.

كان انقلابا عظيما في نظام الحكم وضعت به مصر الأساس لسيادتها واستقلالها وحقها في تقرير مصيرها واستولت به الأمة ممثلة في زعمائها وذوي الرأي فيها على السلطة كاملة وكان خلع خورشيد يعني نهاية التبعية العثمانية في مصر.

وقال الجبرتي (تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على السير بالعدل وإقامة الشرائع والإقلاع عن المظالم والا يقضي أمرا إلا بمشورة العلماء وانه متى خالف الشروط عزلوه بدوره، وزاد الانقلاب جلالا انه تم في دار المحكمة واتخذ معنى الاحتكام إلى الشرع والحق).

ويقول المؤرخ الفرنسي فولايل: (كانت فكرة ملهمة حكيمة تميزت بها الثورة المصرية وصعد وفد من القادة إلى القلعة لمقابلة الباشا خورشيد وإبلاغه بالقرار وانتفض غضبا وصاح (لقد توليت من طرف السلطان ولا يعزلني الفلاحون ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطنة).

وعاد الوفد بالرد وقرر العلماء أصدار بيان للناس قام الشيخ المهدي بإعداده ويقول: (ان الشعوب طبقا لما جرى به قديما ولما تقضي به أحكم الشريعة الإسلامية لهم الحق في ان يقيموا الولاة ولهم ان يعزلوهم إذا ما انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لان الحكام

الظالمين خارجون على القانون وبهذا تم عزل الوالـــي خورشيد).

وأعلن الوالي المقاومـــة وأخـــذ يـــتزود بـــالميرة والذخيرة والمؤن ويستعد لإخضاع المدينة وعلى الفــور نودي بالنفير العام ودعوة الشعب لحمل السلاح والزحف للاستيلاء على القلعة وإجبار الوالي على التسليم.

وتدفقت الجموع واحتشدت من ميـــدان الازبكيـــة حتى مشارف القلعة ورأى العلماء أن يبعثوا بإنذار أخير إلى الوالي (أن تستسلم منعا للفتنة وحقنا للدمـــاء ومـــا يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الأقليم).

وأجاب الوالي بانه يطلب سندا شـــرعيا بأسـباب عزله، واجتمع العلمـــاء فـــي دار المحكمـــة وحـــرروا محضرا في شكل سؤال وجواب على نسق الفتاوي التي كانت تصدر بخلع السلاطين في الاستانة وبعثـــوا بـــه، ولكنه لم يتمثل وأصر على عناده.

وأعلن السيد عمر مكرم انه لا مناص من القتـــال، وتسابق الأهالي للنداء حاملين ما وصل إلى أيديهم مـــن الأسلحة (حمل السلاح كل قادر علـــى حملـــه وخلـــت مخازن الأسلحة من كل ما فيها واشتركت كل الطبقـــات والفئات على اختلاف مراكزهم وطوائفهم وبلغ عددهـــم ما يزيد على أربعين ألفا حاملين كل صنوف الأسلحة بل

العصى والنبابيت وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم او يستدينون ليشتروا الأسلحة).

وكتب القنصل الفرنسي (دورنتي برنتد) دروقتي كانت القاهرة صورة أخرى لباريس في مطلع الثورة الفرنسية) وهجم جنود الوالي ولكن لدى الاشتباك الأول ارتدوا مسرعين ومهزومين أمام الطوفان، وأدرك أنه لا مناص من المهادنة والملاينة، وأرسل أحد رجاله برسالة إلى العلماء يحاورهم ويسألهم (كيف تقدمون على عزل من ولاه السلطان عليكم وتخالفون قاول الله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) وحرر السيد عمر مكرم ردا بعث به مع رسول الوالي يقول: (إن أولي الأمر هم العلماء وحماة الشريعة والسلطان العادل وقد جرت العادة من قديم الزمان ان أهل البلد يعزلون الولاة الظالمين، وهذا شئ مألوف ويسري حتى على الخليفة والسلطان إذا ما سار في الناس بالبطش والجور وقد أجمع العلماء وصدق القاضي على شرعية قتالكم ومحاربتكم حتى تسلموا لانكم أصبحتم عصاة) واحكم الشعب إقامة المتاريس وحصار القلعة وسدت من كل الجهات مواقع الرميلة والمسلة والخطافة والطرق المؤدية إليها مثل باب القرافة والخضرية ومنع الصعود إلى القلعة والنزول منها، واشتعلت المعركة وانهمر

رصاص البنادق وصعد الثوار منارة جامع السلطان حسن يرمون منها القلعة ومن فيها، ولم تنقطع الحشود قادمة من كل الأحياء للاشتراك في القتال وخاصة الحسينية والعطوف والقرافة والصليبا والجميع يحملون البنادق أو المعاول، وقام جنود الوالي بالهجوم الأخير واستماتوا في محاولة فك الحصار وتدمير المتاريس وظل تبادل النيران من الصباح إلى بعد صلاة العشاء حيث ارتدوا مهزومين إلى داخل القلعة.

واستمر الحصار وتبادل إطلاق النيران متقطعا حتى أعلن عن وصول رسول وصل من الاستانة يوم ٩ يوليو ١٨٠٥ ويحمل فرمانا من السلطان يقضي بأن يعين محمد على والي جدة السابق واليا على مصر وأن خورشيد باشا معزول من الولاية وهللت الجماهير وكبرت وفاض بها الفرح بالنصر ولكن رأى العلماء إلا يفك الحصار أو تزول المتاريس أو تنصرف جموع الثوار حتى ينزل خورشيد ويرحل وأستغرق ذلك حتى يوم ٥ أغسطس ١٨٠٥ حيث شيعت مصر آخر وال عثماني وثلاثة قرون من الاستبداد والاستنزاف. كتب المؤرخ الفرنسي فولايل: (كان الحدث الثوري الأول من نوعه في تاريخ الإمبراطورية وفي أهم ولاياتها استطاع الشعب أن يفرض كل المطالب التي تقدم بها زعماؤه،

وكان حق الشعب في اختيار حكامه وفـــي أن يراقــب أعمالهم ثم في أن يعزلهم حينما يفقدون ثقته كان ذلـــك أمرا معدوما تماما في الشرق).

وكانت الأحداث قد تفاقمت قبل ذلك بعشـــرة أيـــام عندما انبلج صبح يوم ١٢ مايو ١٨٠٥ وتبين ان جنـــود الولاة قد أطبقوا على المدينة في نوبـــة محمومـــة مـــن السلب والنهب والتدمير العام وهرعت الأهـــالي نســـاء وأطفالا ورجالا إلى الأزهر تستنجد بالعلماء وأهل الحـل والعقد.

وكان هؤلاء قد حذروا الوالي قبل ذلك، وتعهد لهم برد الجنود بل ان يبعدهم عن المدينة لكنه لـــم يـــف بوعده، بل بدا انه يعتمد ذلك.

واستقر رأي العلماء والزعماء على محاكمة الوالي خورشيد ومخاصمته وان يقام عليه الحد والشـــرع وان يتم في مجلس القضاء في المحكمـــة (بيـــت القـــاضي) ونادى المنادي بذلك في أرجاء المدينة وتدافعت الجموع كالبحر الزاخر واحتشدت في الميدان وفي الفناء المحيط بالمحكمة.

(وكان بحرا زاخرا بلا أول ولا آخر من الخلائـــق الناقمين ثائرين على الوالي ومن ولوه وفجـــأة تصـــاعد

تلقائيا وجماعيا هتاف هادر ردده الجميع: (يـــا رب يـــا متجلي أهلك العثمانلي) وكان أول مرة يسمع في المدينـة وبدا انه إعلان تاريخي بنهاية الحكم العثماني).

وقدم العلماء ظلامة الجماهير إلى القاضي وطلبـوا إليه أن يرسل إلى الوالي بالحضور أو يبعث وكلاء عنه ليشهدوا المخاصمة والمحاكمة.

وأجابهم القاضي لما طلبوا وقرأ الظلامة وكـــانت تنص على:

١ ــ ألا تفرض أي ضريبة أو رسوم أو مكـــوس إلا إذا أقرها العلماء.

٢ ــ أن يغادر جنود الدلاة القاهرة ويبقـــوا فـــي القشلاقات في الجيزة.

٣ ــ ألا يسمح بدخول أي جندي إلى المدينة حاملا سلاحه.

٤ ــ أن تعاد المواصلات في الحال بين القـــاهرة والوجه القبلي وكانت قد قطعت بحجة مطاردة المماليك.

وأقر القاضي بعدالة الطلبات وتسلمها وصعدوا بها إلى القلعة.

(كانت "ماجنا كارتا" مصرية تماما مثل تلك التـــي انتزعها النبلاء والملاك الإنجلـيز مـن الملـك ١٦٨٨

وكانت وكانت أساس الديمقراطية البريطانيـــة) وذلــك تماما كما قال المؤرخ الفرنسي فيليكس بانجان.

وعاد رسول الوالي حاملا الرد ويطلب إلى الســيد عمر مكرم وزملائه الصعود إلى القلعة لمشاورة الوالــي في الأمر.

وداخل الشك السيد عمر مكرم وفطن إلى مقــاصد الوالي وان يغدر بالجميع وكان على حق في ذلك وقـــد تأكدوا فيما بعد انه كان قد أعد العدة لاعتقالهم بمجـــرد وصولهم. وأستقر الرأي لهذا على ان لا منـــاص مـــن خلعه ومن الخلاص نـــهائيا مـــن الـــولاة والســيطرة العثمانية.

وكان خورشيد باشا يدين بولايته للعلماء والزعماء المصريين وكانوا هم الذين اختـــاروه وأشـــاروا علـــى السلطان بتوليته واستجاب لهم (ترضية للعلماء والرعية) وكان خورشيد خامس الولاة الذين تعاقبوا على الولابـــة منذ جلاء الفرنسيين أي على مدى أقل من أربع سنوات. وقد خلع الأول خسروا باشا وقتل الثاني طـــاهر باشـــا وخلع الثالث أحمد باشا، وقتل الرابع عمر الجوايرلـــي باشا، وتهدد الأمن والاستقرار في أهم ولايـــات الدولـــة العليا ولهذا وافق السلطان على خورشيد باشا.

وكان يشغل منصب محافظ الإسكندرية وهو الذي تسلم المدينة من القوات الإنجليزية بعد الجلاء واجتهد في التنظيم والترميم بما جعل العلماء والعامة يتوسمون فيه الخير والعدل.

وضمانا لسلوكه وعدم انحرافه اشترطوا عليه ان يعين الضابط الألباني اللواء محمد على قائمقام له وان يكون مسئولا عن الأمن، وقبل ذلك على مضض.

وكان محمد على قد جاء إلى مصر على رأس كتيبة ألبانية من ثلاثمائة جندي يقودها ابن الحاكم ومساعده محمد على وتميزت بشجاعتها وانضباطها وارتقى محمد على لبكون القائد ثم ضمت إليه فرق من الاناؤوط حتى أصبح على رأس جيش من ثلاثة آلاف مقاتل.

وقد تميز بانحيازه منذ وصوله إلى صف الأهالي والعلماء وقد اختلط وامتزج بالجميع واستطاع ان يكسب ثقتهم واحترامهم ولم يكن ذلك معهودا في الضباط أو العساكر العثمانيين.

ولم يستغرق الوالي طويلا حتى أسفر عن وجهه الحقيقي وما يدبره وفوجئوا به يستصدر فرمانا من السلطان بسحب القوات الألبانية من مصر بغير ان يخطرهم أو يستشيرهم في الأمر.

وطلب العلماء إلى محمد علـــى ألا ينفــذ الأمــر وأخذوا على عاتقهم المسئولية ووافقهم ولم يثنه ذلك عن مواصلة السعي واستصدر فرمانا سلطانيا بتعيين محمــد على واليا على جدة، فوجئ الجميع مرة أخرى بطلـــب العلماء إلى محمد على ألا يمتثل وسوف يتولون الرد.

وبعث إلى السلطان يحذر من فتنة يعد لها العلمــاء ويحرضهم عليها محمد على للتمرد على الدولة وطلــب قوة من الدلاة وكانوا معروفين مشهورين بانــــهم أســوأ القوات العثمانية التي لم يعرف عنها أي فضيلة.

وكان هناك جيش من ثلاثة آلاف من الــدلاة فــي الشام ضج منهم أهلها وتقرر إرسالهم إلى خورشيد باشا لتدارك الفتنة، ومن اليوم الأول أطلق لهم العنــــان وان يستبيحوا كل شئ ووقف القائمقام وقواته في وجه الـدلاة وبقدر ما استطاعوا ولكن بدا ان لا مناص مـــن حســم الأمور.

بدا ان الدولة تريد سحق القـــوة الجديـدة الفتيــة الشعبية التي انبعثت وتزحف لتسود.

وكانت الدولة قد قررت بعـــد جــلاء الفرنســيين والبريطانيين ان تستعيد سلطاتها كاملة ومطلقـــة علـــى ولاية مصر.

ولهذا صدرت التعليمات إلى الصدر الأعظم بإبادة المماليك وهم المنافس التقليدي.

وأدرك العلماء والزعماء ان هناك مصيرا مماثلا ينتظرهم، ولهذا قرروا أن يأخذوا المبادرة ويقوموا بالضربة الحاسمة ولم يخطر ببالهم إلى أي مدى سوف يمضي التاريخ وسوف يتغير.

ومازلنا حتى الآن نعيش تفاعلات ومضاعفات ذلك الحدث العظيم.

***